أمثلة من الترجمة

Lorenz Jäger
Walter Benjamin.
Das Leben eines Unvollendeten

Rowohlt Berlin Verlag, Berlin 2017
ISBN 978-3-871-34821-1

صفحات 11-17 & 66-71

لورنتس ييجر
"فالتر بنيامين. حياة إنسان غير مكتمل"
ترجمة هبة شريف

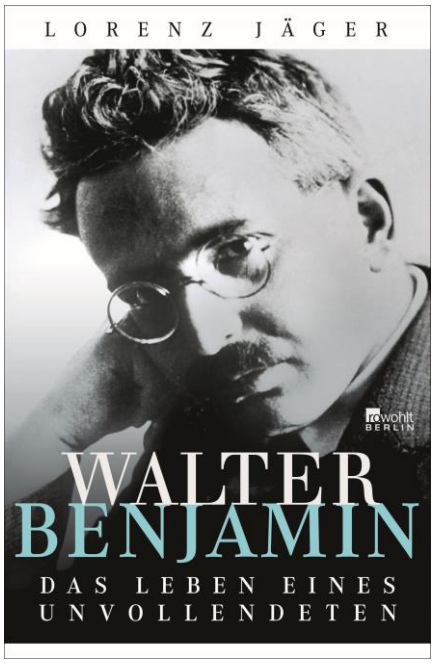

© 2017 Litrix.de

الفصل الأول

الحجرة المحظورة

أصول بنيامين العائلية

أبي الطيب كان يقيم في باريس ذات يوم.
كارل جوتسوكو، رسائل من باريس 1842. مقتبس عن بنيامين 1935.

في يوم من الأيام كان هناك تاجر يعيش في مدينة كبيرة قديمة. كان بيته في أقدم أحياء المدينة، في حارة ضيقة وقذرة. وفي تلك الحارة، حيث كل البيوت قديمة جداً لدرجة أن البيت الواحد لا يستطيع أن يقف وحده، بل يجب أن يقف مستندا على البيوت الأخرى – كان بيت هذا التاجر أقدمها. ولكنه كان أكبرها أيضا. كان البيت يبدو غريباً حقا ببوابته العظيمة المقوسة ونوافذه العالية المقوسة أيضا والمعتمة حتى نصفها وبسقفه حاد الانحدار المثبت به عدد كبير من النوافذ الصغيرة. كانت مدينة متدينة وكانت بيوت كثيرة فيها تحفر على أبوابها وأسقفها صور السيدة العذراء أو صور قديس من القديسين. وحتى في حارة مارين كان لكل بيت القديس الخاص به، -ماعدا بيت التاجر، فقد كان يقف هكذا رمادياً وخالياً من أي زخارف.[1]

هكذا يبدأ أحد أقدم نصوص فالتر بنيامين التي انتقلت إلينا. لم يكتب هذا النص قبل 1906. كان بنيامين قد بلغ الرابعة عشر في الأغلب. تاجر يعيش في محيط مسيحي بامتياز، الا أننا نرى فرقاً ثقافياً بارزاً. لابد وأن التاجر شخص لا يعرف الإيمان، فبالرغم من أنه يقيم في حارة مارين المتدينة، إلا أن بيته يتجنب زخارف أشكال القديسين والقديسات. يسترعى البيت الانتباه، فهو "غريب". وحتى صاحبه لا ينتمي الى دائرة السكان المعتادة في المدينة. "فهو لم يكن تاجراً صغيراً عادياً يشتري منه الناس ملابسهم وتوابلهم. لا! إنه لم يكن حتى يتعامل مع سكان الحارة البسطاء الفقراء. فكل يوم كان يجلس في حجرة مكتبه الكبيرة ذات الخزائن العالية والرفوف الطويلة ويحسب ويقيد الحسابات. فتجارته كانت تمتد لما بعد البحر، حتى تصل إلى هناك حيث البلاد البعيدة القصية" – أي غالبا الى بلاد شرق المتوسط أو الى إسبانيا والبرتغال. في هذه البيئة التي تتسم بالقدم وبممارسة التجارة بالطرق التقليدية، كان لهذا التاجر مبدأ آخر، مبدأ عالمي، مبدأ التجارة على مستوى كبير مع البلاد البعيدة بحيث تدخل البضائع الغريبة إلى البلاد. وهنا يظهر الجانب اليهودي في شخصية التاجر.[2]

لا نعرف شيئا عن نوع البضائع التي كان التاجر يتاجر بها – ولكننا عرفنا فقط أنه كان ينتعش عندما يقوم بعمله. فالحساب هو حياته. هكذا يتم تصوير تاجر يهودي كبير تصويراً مجرداً ومبالغاً فيه في نفس الوقت. ولكن الآن تتحول القصة لتصبح حكاية خرافية مليئة بالألغاز. ففي بيت التاجر تعيش فتاة. "لم تكن الفتاة ابنته، ولكنها كانت تعيش لديه. لقد رباها التاجر، وكانت الفتاة تساعده في تدبير المنزل. ولكن لم يعرف أحد تحديداً ما الذي أتى بهذه الفتاة الى بيت التاجر".

لم يكن أصل الفتاة إلا الجزء الأول من اللغز. أما الجزء الثاني في اللغز فلا يثير أيا من المشاعر الطيبة، بل إنه يجعل التاجر يبدو مثل الفارس الشرير ذو اللحية الزرقاء في الحكاية الخيالية، مستدعياً نفس

[1] Benjamin: Gesammelte Schriften VII. S. 635ff.

[2] Handbuch der europäischen Geschichte. Bd. 2: Europa im Hoch- und Spätmittelalter. Hrsg. von Ferdinand Seibt. Stuttgart 1987, S. 155.

© 2017 Litrix.de

التيمة القديمة للحجرة المحظورة.[i]: "فقد وقف التاجر ذات يوم أمام الفتاة وقال لها، أنه عليه أن يغادر الوطن الفترة من الوقت؛ 'انا لا أعرف تحديدا متى سأعود، تابعي أنت شؤون المنزل كالمعتاد ولكن' – وهنا قطع كلامه، 'أنا أرى أنك قد كبرت الآن، وأنك تستطيعين تدبير شؤون المنزل وحدك في غيابي. خذي هذه المفاتيح' أما الفتاة، فقد كانت في هذه الأثناء تقف صامتة تتأمل الأزهار الغريبة المطرزة على ثياب التاجر بعينين مندهشتين. رفعت الفتاة بصرها الى التاجر وأخذت المفاتيح. وهنا نظر اليها التاجر نظرة صارمة، ثم قال لها بنبرة حادة: 'أنت تعرفين أنه ليس مسموحا لك إلا باستخدام مفاتيح حجرة خزين المنزل. لا تحاولي أبداً أن تصعدي الى الدور العلوي. أتفهمين؟' ردت الفتاة في خجل بالإيجاب. فانحنى التاجر وقبلها، ونظر اليها مرة أخرى نظرة فاحصة، ثم نزل السلالم وغادر البيت. وانغلق باب البيت بعد خروجه محدثاً دوياً كبيراً. وظلت الفتاة واقفة عند السلم تتأمل مجموعة المفاتيح القديمة في يدها بنظرات حالمة."

هنا ينتهي النص غير المكتمل. والتاجر، صاحب الأمر والنهي يترك خلفه لغزا. والفتاة لا تستطيع حل اللغز، لا تستطيع سوى أن تفكر ملياً في حل له، لا تملك إلا أن تتأمل، وهي تتأمل الأشياء أكثر من تأملها البشر.

"ولدت في الخامس عشر من شهر يوليو في عام 1892، ابناً للتاجر إميل بنيامين Emil Benjamin وزوجته باولينه شونفليس Pauline Schoenflies (إسمها قبل الزواج) . أبي وأمي مازالا على قيد الحياة. وقد ولدت على دين موسى."[3] تعلم إميل بينامين في الأصل تعليماً تجارياً، وعمل في أحد البنوك في باريس. وفيما بعد شارك آخرين وامتلك حصة في "صالة مزادات رودولف لبكه للأعمال الفنية Rudolph (Lekpe's Kunst-Auctions-Haus)، والتي تعتبر إحدى العلامات البارزة في مجال تجارة الأعمال الفنية في برلين، وقد أسسها جد رودلف لبكه ناتان ليفي Nathan Levi. وبعد عام 1990 – حيث لا أحد يعلم التاريخ على وجه الدقة – باع إميل بنيامين حصته في صالة المزادات. أما والد الأب، بنديكس بنيامين Bendix Benjamin فقد ولد عام 1818 وتوفي عام 1885، وكان تاجراً أيضاً قبل أن يتقاعد،[4] ولكن لم ترد لنا معلومات حول المجال الذي كان يتاجر فيه. أما الجد الأكبر إلياس بنيامين Elias Benjamin (كان اسمه فيما بعد إميل Emil) فقد ولد في عام 1769 ومات في عام 1835، وكان ينتمي لأسرة ثرية من التجار ويعمل تاجر تجزئة في مجال القماش.[5] أما الجد والد الأم، جورج شونفليس Georg Schoenflies فقد كان يملك مصنعاً للتبغ والسيجار.

من المؤكد أننا سوف نهتم بوظيفة إميل بنيامين لأنها كانت متعلقة بتجارة الأعمال الفنية، لكن مهنة التجارة كانت في ذلك الوقت المهنة النمطية لليهود الالمان. وفي الإحصاء الذي قام به لوظائف اليهود كتب جرشوم شولم Gershom Scholem: "في العام 1904 كان من بين كل مائة عامل 50% يعملون في مجال التجارة، و21% يعملون في الصناعة، وفي المقابل كان 7% فقط يعملون في المهن الحرة، و1.5% فقط يعملون في الزراعة وتربية الحيوانات والمشاتل. ووصف 20% أنفسهم بأنهم على المعاش أو أنهم لم يعطوا أي وصف لمهنتهم – وهي نسبة عالية تدعو للدهشة، إلا أننا يمكن أن نضم الى هذه النسبة أيضا

[3] Benjamin: Gesammelte Schriften VI, S. 215.

[4] Gershom Scholem: Ahnen und Verwandte Walter Benjamins. In: Ders.: Walter Benjamin und sein Engel. Vierzehn Aufsätze und kleine Beiträge. Hrsg. von Rolf Tiedemann. Frankfurt 1983, S. 131.

[5] المرجع السابق. ص. 133.

أولئك الذين يعملون في مجالات لها علاقة بالأموال، أي: المرابين الذين يخجلون من الإعلان صراحة عن أعمالهم."[6]

حتى بنيامين نفسه تحدث عن لغز يخص أباه. فقد كتب في مدونات السيرة الذاتية "وقائع برلين" شارحاً: "إن الأساس الاقتصادي الذي اعتمد عليه أبواي في تدبير حياتنا طوال فترة طفولتي وشبابي وفيما بعد كان محاطاً بالسرية التامة." كان والده يملك صفة المخاطرة التي تسم التجار الكبار. وقد أدت بعض المؤثرات غير المناسبة لأن ينسحب مبكراً جداً من صالة مزادات لبكه، رغم أن هذا المشروع كان يبدو أنه يناسب امكانياته جيداً. كانت صالة المزادات في ذلك الوقت مازالت تقع في شارع كوخ، وكان مازال يمتلك نصيبا فيها." وبعد أن تنازل عن نصيبه في صالة المزادات، بدأ الأب "يميل أكثر الى المضاربة بنقوده." والمثير في الأمر أن بنيامين قد اعترف أن أباه يملك هذه الطبيعة المغامرة "لكبار التجار"، ولكننا نكاد نلمح اتهاماً خافتاً في هذا الاعتراف، خاصة عندما يتحول الحديث الى المضاربة بالأموال، حيث لم يعد الأب محتاجا إلى أن يعمل بالتجارة فيما يبدو.[7]

إذا سلمنا بصحة أن الأبناء يختارون لأنفسهم الوظيفة التي تسمح لهم بالتفتيش في أسرار آبائهم، فإننا بهذا نكون قد أعدنا تفسير نظرية فرويد عن عقدة أوديب من أجل أغراضنا – وهكذا كان حل كل الألغاز الخاصة بمهنة التاجر هو ما انتج أعمال بنيامين. فقد وصف صديق بنيامين، الفيلسوف غرنست بلوخ Ernst Bloch كتاب بنيامين "شارع ذو اتجاه واحد" بقوله :"في هذا الكتاب رأينا (...) افتتاحا لمتجر للفلسفة الا أن هذا المتجر يعرض في فاترينة العرض أحدث صيحات الربيع من الميتافيزيقا."[8] وسوف تعود هذه العلاقة – أو هذا التعارض – بين بيت التاجر الذي تحكي عنه القصة وبين الجيران "المتدينين" لتظهر في تأملات بنيامين عن "الرأسمالية كديانة": "المقارنة بين صور القديسين في الديانات المختلفة من ناحية وبين العملات المختلفة في البلاد المختلفة من ناحية أخرى. الروح التي تنبثق من زخارف العملات الورقية. الرأسمالية والقانون."[9] وسوف تظل هذه الفكرة تتخلل أعماله، حتى نصل الى آخر أعماله، حيث يصور شارل بودلير Charles Baudlaires بوصفه شاعراً في الاقتصاد السلعي.

لكن إميل بنيامين لم يكن يعمل فقط في مجال تجارة الأعمال الفنية، ولم تكن خبرته مقتصرة على هذا المجال فقط،، فقد كانت له أيضا اهتمامات ثقافية أخرى كما يقول عنه شولم: "لقد امتلك في وقت مبكر جداً مجموعة كبيرة من مخطوطات المؤلفين، وقد حكى لي عنها فالتر بنيامين كثيرا. وكان من بينها مخطوطات ذات قيمة كبيرة مثل ذلك الخطاب الطويل الذي كتبه مارتين لوترMartin Luther."[10] وكانت أخت إميل، أي عمة بنيامين، العمة فريدريكة Tante Friederike تعتبر هي الأخرى من أوائل المتخصصين في "تحليل خطوط اليد (الجرافولوجي) Graphologie. وكانت قد تتلمذت على يد كربيو- جامين Crepieux-Jamin. وغالباً كانت هي من أثارت لدى بنيامين الاهتمام بتحليل الخطوط وشجعته."[11]

[6]Gershom Scholem: Zur Sozialpsychologie der Juden in Deutschland 1900 – 1930.
In: Judaica 4. Frankfurt a. M. 1984, S. 233.

[7] Berliner Chronik, Benjamin: Gesammelte Schriften VI.

[8] Wizisla (Hrsg.): Begegnungen mit Walter Benjamin, S. 84 f.

[9] Kapitalismus als Religion, Benjamin: Gesammelte Schriften VI, S. 102.

[10] المرجع السابق.

[11] كان جول كربيو جامين (1859 – 1940) واحدا من أشهر المتخصصين في الخطوط في فرنسا في عصره.

هكذا يمكننا أن نتصور كيف كان افراد العائلة يتواصلون مع بعضهم البعض، استناداً إلى وظيفة الأب وعلى قصة حياته. فلابد أن الموضوعات المثارة كانت تدور حول التجارة أحياناً، وأحياناً أخرى حول الفنون ونظريات الفن – أي حول قضايا أصول الأعمال الفنية والنسخ المقلدة والتزوير وإعادة انتاج الأعمال الفنية، وفقا لما سوف نقرأه فيما بعد عن "الهالة" Aura الخاصة بكل عمل، إنها القضايا التي تمس صميم اهتمام من يرتاد صالات مزادات الأعمال الفنية. هذا ما لاحظه الفيلسوف جونتر أندرس Günther Anders وهو أحد أبناء الخال أو الخالة لفالتر بنيامين. فقد عبر عن رأيه عن "الهالة" بنوع من التهكم قائلا: "إن الفكرة تعود الى صالة مزادات لبكه، حيث كان والد بنيامين أحد ملاكها، وكان يرى أن المنتج ليس إعادة انتاج، لا، بل يجب أن نلمح في المنتج نفسه وبشكل مباشر أنه لا يمكن إعادة انتاجه."[12] ومن المحتمل أن تكون مجموعة المخطوطات التي امتلكها الأب وشغف العمة بتحليل الخطوط قد أثارت بشكل خفي أسئلة لدى بنيامين في شبابه عن سبب تفوق الكتابة على الصورة أو عن السمات التصويرية المميزة للكتابة – على أية حال، كانت العناصر الخاصة بهذا الموضوع حاضرة بالفعل في ذهن بنيامين وان كانت مازالت غير مترابطة، ولكنها تطورت فيما بعد الى نظرية مكتملة عن الكتابة في عصر الباروك ونُشرت في كتابه "أصل التراجيديا الألمانية".

في النهاية ربما كانت مجموعة المخطوطات التي امتلكها الأب (ومعاملاته مع جامعي المقتنيات التي حتمتها عليه مهنته) هي نقطة البداية ليس فقط في شغف بنيامين باقتناء المجموعات، ولكن أيضاً في اهتمامه النظري بشخصية جامع المقتنيات. فقد أفرد لهذه الشخصية في عمله "مشروع الممرات" مجموعة كاملة من الملاحظات. وقد التقط أدورنو Adorno ملمحاً من شخصية صديقه عندما وصف مظهره الخارجي بقوله : "لقد كان وجهه متناسق القسمات. ولكن كان له في نفس الوقت – رغم أنه صعب العثور على الوصف المناسب - ملمح الحيوان الذي يجمع في خديه مخزونه من الطعام."[13]

لابد وأن العائلة كانت تتحدث أيضا عن باريس بين الحين والآخر: فقد كانت باريس هي المدينة التي جمع فيها الأب أولى خبراته في المهنة. وشيئاً فشيئاً أصبحت باريس فيما بعد موضوعاً يشغل حياة بنيامين: فمجموعة النصوص غير المكتملة التي وردت الينا في النهاية في كتاب غير مكتمل بعنوان "مشروع الممرات" كانت مسوداتها تحمل عنوان "باريس عاصمة القرن التاسع عشر" ، " Paris, capitale du XIXe siecle". إن عاصمة القرن التاسع عشر هي المدينة التي عاش فيها الأب.

[i] الفارس ذو اللحية الزرقاء حكاية خيالية تدور حول فارس مهيب ذي لحية زرقاء عظيمة وثروة كبيرة وقلعة ضخمة، وكان كلما يتزوج من امرأة تختفي، الى أن تزوج من فتاة جميلة ذات يوم وأتى بها الى قلعته هي وأختها. وذات يوم قرر السفر فأوصى زوجته بأن تنتبه للقلعة وأعطاها مفاتيح حجرات القلعة كلها، وسمح لها أن تتحرك في القلعة بحرية وتفتح كل الحجرات ماعدا حجرة واحدة. فقد حذرها بشدة من أن تفتح هذه الحجرة. وعندما فتحت الزوجة الشابة هذه الحجرة وجدت رؤوس الزوجات الأخريات مقطوعة تقطر منها الدماء. وعندما عاد الفارس الشرير من السفر اراد معاقبتها على فضولها وقتلها، الا أن أخوتها استطاعوا قتله وانقاذها

[12] Günter Anders: Ketzereien. München 1996, S. 95.

[13] Wizisla (Hrsg.): Begegnungen mit Walter Benjamin, S. 125.

فالتر بنيامين مع أخيه الأصغر وأبويه – باولينه وإميل بنيامين.

الفصل الرابع

الميتافيزيقا والإيمان بالمسيح المخلص

الفلسفة الأولى

كانت الميتافيزيقا تدفعه للجنون.
لم يعد إدراكه مثل باقي البشر،
وإنما مثل الادراك الذي وضعه الرب في المجنون."
جرشوم شولم عن بنيامين. يونيو 1918

لم يكن بنيامين شخصاً يمكن أن يُقال عنه أنه جميل، ولكنه كان شخصا يؤثر في الناظر إليه بسبب جبهته العالية والنقية نقاء غير عادي."[1] هكذا صور جرشوم شولم صديقه بنيامين. وكان للمصورة الكبيرة جيزيل فرويند Gisele Freund رأي مشابه أيضاً. وكانت تملك معرفة قوية بتحليل الوجوه لأنها كانت متخصصة في تصويرها. فقالت عنه: "كانت جبهته عالية ومقوسة"[2] ومؤخراً وصفته ليزا فيتكو Lisa Fittko بأن رأسه رأس "رجل علاّمة صاحب ذهن متوقد"[3] وتتفق أدريان مونييه Adrienne Monnier مع هذا الرأي في النهاية قائلة: "كانت جبهته عالية وعريضة."[4].

ما نقرأه هنا يُعد وصفاً يتبع نفس التقليد القديم لتصوير رؤوس الفلاسفة، وقد اعتدنا قراءته منذ العصور الكلاسيكية القديمة لدرجة أن هذا التقليد في وصف جبهة المفكرين قد تحول الى صيغة شبه مستقرة. إن الأمر هنا لا يتعلق بحكمة الأجداد في قراءة معالم الوجه أو بالمعتقدات الخرافية البسيطة للشعوب. فمثلاً يشرح باول تسانكر Paul Zanker (عالم آثار متخصص في الأثار الاغريقية والرومانية القديمة) لماذا تصور الفنون التشكيلية جبهة المفكرين بهذا الشكل. ففي العصور القديمة كان إبراز العينين والجبهة في التماثيل من شأنه تأكيد حضور العقل والإيمان في وجه المفكر.[5] أما هانس فورستل Hans Förstl وهو أحد علماء علم النفس في ميونيخ، فقد برهن بالدليل أن الفكرة القائلة بأن جبهة المفكرين هي تعبير عن القدرات العقلية الكبيرة التي يتمتعون بها مازالت لها وجاهتها أيضا في العصر الحديث – وهو ما يمكن التدليل عليه إذا ما نظرنا إلى التماثيل النصفية لكل من بيتهوفن وجوته.[6]

تشير جبهة بنيامين العالية بوضوح إلى شخصية المفكر. ولكن تفسير شولم لفكر بنيامين كان مختلفاً عن تفسير أدورنو له بشكل مثير للاهتمام. فبنيامين لم يكن بالنسبة لصديقه شولم ذا توجه مثقف أو فلسفي أو علمي هكذا ببساطة وبدون تحديد، ولكنه كان "ميتافيزيقياً". "عندما أستحضر الآن ما كان يجمعنا تحن الإثنين (...)، أرى أنها كانت أشياء لا يمكن اغفالها. إنها أشياء أستطيع أن أحددها مثلا وبشكل عام في الإصرار على تتبع الهدف الفكري، وفي رفض المجال الذي يحيط بنا نحن اليهود الالمان من الطبقة

[1] Scholem: Walter Benjamin, S. 16.

[2] Wizisla (Hrsg.): Begegnungen mit Walter Benjamin, S. 240.

[3] المرجع السابق. ص. 331.

[4] المرجع السابق. ص. 187.

[5] Paul Zanker: Die Maske des Sokrates. Das Bild des Intellektuellen in der antiken Kunst. München 1995, S. 302.

[6] Hans Förstl (Hrsg.): Frontalhirn. Funktionen und Erkrankungen. Berlin und Heidelberg 2002, S. 3. Vgl. auch Katharina Andres: Antike Physiognomik in Renaissanceporträts. Frankfurt a. M. 1990, S. 185.

البرجوازية، هذا الرفض الذي يتمثل في الأساس في عدم قبول الاندماج في المجتمع، وفي قبول الميتافيزيقا."[7]

في المقابل غالبا ما كان أدورنو يستهين قليلاً بمفهوم "الميتافيزيقا" وكان يفضل التحدث عن الفلسفة – فالفلسفة هي التيمة الأساسية في شخصية بنيامين –يبدو أن مظهر بنيامين الخارجي قد أفصح عن كل شيء فيما يخص شخصيته: "أنا لم أر من قبل انساناً قد تشكل كل وجوده، حتى مظهره الخارجي، بالكامل بالعقل." يتحدث أدورنو هنا عن "القوة المنقطعة النظير لرؤية بنيامين العقلية ولاستنتاجاته الفكرية في ذات الوقت"، إلا أن أدورنو قد فهم من خلال بنيامين نفسه "ما الذي ينبغي أن تكون عليه الفلسفة، ما الذي ينبغي أن تحققه، وما الذي تعد به"[8] . وفيما بعد، في الستينيات، عندما اشتدت الخلافات بين أصدقاء بنيامين حول التفسير الصحيح، دوّن أدورنو ملاحظاته التي كتبها والتي كانت تعارض رأي هْنّا ارنت Hannah Arendt:"إن نظرية (هـ أ.) الأساسية تقول : أن (ف . ب .) لم يكن فيلسوفاً. يا لهذا المفهوم عن الفلسفة. انه مفهوم هايدجر ...Heidegger ...الخ. أين تظهر الفلسفة. إن مفهوم النقد عند (ف . ب .) يستند على مضمون فلسفي ولذلك فهو مفهوم ذو جوهر هام، وبدون هذا المضمون الفلسفي لن يكون للنقد هذا التطلع الشغوف الوثاب والذي كان (ب) يحاول تحقيقه عن طريق التعالي على النقد التقليدي. وفي المقابل تريد (هـ . أ.) نفي هذا الارتباط بينه وبين الفلسفة."[9]

إن الأمر كله في الواقع يدور حول هذا الارتباط مع الفلسفة. الميتافيزيقا هي مفهوم أكثر طموحا للفلسفة يمكن تصوره، لأنه مفهوم يفصح عن الإرادة لتوظيف الفلسفة من أجل الكشف عن النظام الموضوعي للعالم، للوجود في الكل. قد يبدو هذا المطلب اليوم غريباً. ولهذا فقد اختار يورجن هابرماس Jürgen Habermas لمشروعه الفلسفي مصطلح "الفكر ما بعد الميتافيزيقي"، ويعتبر هذا المصطلح توصيفاً صائباً يجمع كل الآراء المحتملة لإمكانيات الفكر اليوم. فيقول هابرماس: "إن نظرة واحدة فقط على سياقنا العلمي والثقافي والاجتماعي كفيلة بأن تُعلمنا كيف أن الفلاسفة لم يعودوا ينتمون إلى دوائر الشعراء والمفكرين. إنهم لم يعودوا حكماء ومتبصرين يدّعون بأن لديهم– كما يفعل هايدجر أيضا – قدرات مميزة تجعلهم قادرين على الوصول للحقيقة"[10]

فلننس للحظة هذه النبرة المتهكمة قليلاً المقصود بها الشعراء والمفكرين والحكماء والمتبصرين ومعهم أيضا هايدجر و"قدراتهم المميزة التي تجعلهم قادرين على الوصول للحقيقة". إن الميتافيزيقا تتناول الأسئلة المثارة مؤخراً بيقين أنها تستطيع إيجاد إجابات معقولة لها. في بداية سنوات صداقتهما كان بنيامين بالنسبة لشولم "روحاً تميل إلى التنظيم، كان ذهنه منفتحاً على كتابة نظام للفلسفة، وكتابة ميتافيزيقا، وقد كتب بالفعل العديد من المسودات في هذا

[7]Wizisla (Hrsg.): Begegnungen mit Walter Benjamin, S. 32

[8].128 المرجع السابق ص.
وفي نفس السياق انظر أيضا جان سلتس
ان ثراء بنيامين يكمن في تأملاته النافذة"
المرجع السابق. ص. 206.

[9] Adorno: Über Walter Benjamin, S. 104.

[10] Jürgen Habermas: Nachmetaphysisches Denken II. Aufsätze und Repliken. Frankfurt a. M. 2012, S. 7.

الشأن. كان اهتمامه بالميتافيزيقا أهم ملمح له، وأكثر مواهبه ونبوغه وضوحاً." ظل هذا الدافع للميتافيزيقا مؤثراً فيما بعد أيضا، إلا أنه تعرض "للتدمير الجدلي."[11]

وقد اختار بنيامين لمقالته التي كتب فيها أراءه عن الميتافيزيقا عنوان "برنامج الفلسفة القادمة". ولم يكن في الإمكان أن يلاقي عنوان آخر مثل هذا الاستحسان الذي قوبل به هذا الاختيار. فقد كان بنيامين آنذاك شابا في الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد. كتب بنيامين مقالته في نوفمبر من عام 1917. وقد انبثقت هذه المقالة عن تبادل أفكار مع شولم، وانطلقت في الأساس من نقد كانط. فقد قرأ الصديقان كانط سويا. وفي 6مايو من عام 1918كتب شولم في يومياته: "ثم خرجنا نحن الإثنان نتنزه وتحدثنا عن كانط. إلا أن بنيامين كان يسبقني في التوغل في نظام فلسفة كانط. ‘لقد أسس كانط تجربة قليلة القيمة‘"[12]

ما هي العلاقة بين فلسفة كانط وبين التجربة قليلة القيمة؟ إن العلاقة تكمن أساسا في الالتزام بالفصل بين ذات وموضوع المعرفة، هذا الفصل الذي استقر منذ أن قام ديكارت بهذا التمييز – هنا الذات العارفة *res cognitas* وهناك (في مكان ما في الخارج) العالم المادي *res extensa*. الا أنه في النهاية يظل غير مفهوم لنا كيف أن أحدهما يؤدي الى الآخر ويلتقيان في النهاية. وهنا تكمن المشكلة الأولى التي يجب علينا حلها وفقا لبنيامين. "إن وظيفة نظرية المعرفة القادمة هي أن تجد للمعرفة مجالا محايدا تماما فيما يخص مفاهيم الذات والموضوع، بمعنى آخر، أن تكشف هذه النظرية عن المجال الأصيل المستقل للمعرفة بحيث لا يعود مفهوم المعرفة يصف بأي حال من الأحوال العلاقة بين إثنين من الكيانات الميتافيزيقية." ثم قال بعد ذلك: "طالما أن كانط والكانطيين الجدد قد استطاعوا التغلب على فكرة أن طبيعة الموضوع هي التي تحدد الإحساس به، فمازال عليهم في نفس الوقت أن يهدموا فكرة الطبيعة الذاتية للوعي."[13]

يبحث بنيامين في البداية عن بوادر تؤكد فشل النظرية التقليدية عن الذات العارفة. "إننا نعرف عن الشعوب البدائية في المرحلة التي تسمى مرحلة ما قبل عبادة الروح الكبرى präanimistische Stufe والتي كان فيها الناس يشعرون بالتطابق مع حيوانات أو نباتات مقدسة بحيث لم تعد بالنسبة لهم موضوعات مختلفة عنهم. فقد عرفنا مثلاً عن مرضى لم يكونوا يحيلون آلام أمراضهم إلى أجسادهم هم ولكن إلى كائنات أخرى، كما وردت إلينا معلومات عن عرافين ادّعوا على الأقل امتلاك القدرة على الوعي بما يدركه آخرون." هنا تكمن نظرية أخرى عن المعرفة مختلفة عن نظرية كانط وديكارت.

[11] Wizisla (Hrsg.): Begegnungen mit Walter Benjamin, S. 37.
[12] المرجع السابق. ص. 56.
[13] Benjamin: Gesammelte Schriften II, S. 163, 161.

استطاع بنيامين أن يحتل مكانا متقدما في مجال الفلسفة بتتبعه لهذا الهدف – هدف التفكير في علاقة جديدة بين الذات والموضوع أو إيجاد مفهوم جديد للمعرفة بشكل عام – حتى لو لم يكن قد بلور وسيلة لحل هذه المعضلة بعد في عام 1917. وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ سوف يعود مارتين هايدجر ليتتبع في عمله الرئيس "الوجود والزمن" خطوات ديكارت بل ويتخطاه أيضا – ويقول إن افتراضات ديكارت قد أسفرت عن صورة زائفة. فوفقاً لهايدجر فإن الأشياء *في الكون* من حولنا تبدو لنا مألوفة بشكل عملي وقريبة منا، فالآلات اليدوية مثلا ليست شيئاً غريباً ولكنها أشياء في متناول اليد، وهي أشياء تتواجد بالتالي في سياق المُدركات في الواقع العملي من حيث *فائدتها*. "الآلة هي في جوهرها شيء لغرض ما..."[14] وفقا لهايدجر فإن التساؤل المبدئي "من أجل ماذا" لابد وأن يكون "من أجل أي غرض". إن تعبير "من أجل أي غرض" يمس الكون الذي يدور في جوهره حول الوجود نفسه."[15] انطلق هايدجر من سياق للأفعال، أي من خبرة عملية بالحياة، حيث يحدث دائما هذا التبادل الذي يبدو - ظاهريا فقط - غامضا بين الذات والموضوع، لأن هناك سياق يحدث فيه هذا التعامل بينهما. ويسوق مثاله المفضل عن المطرقة "كلما قللنا التحديق في المطرقة، كلما استخدمناها أكثر، وكلما مددنا اليها يدنا بشكل أسرع، كلما كانت العلاقة معها اصيلة أكثر، وكلما ظهرت المطرقة بشكل أفضل على حقيقتها، أي ظهرت لنا بوصفها أداة."[16] المطرقة ليست موجودة لذاتها، ولكنها موجودة لاستخدام "اليد". "إن الاستخدام لليد هو التحديد الأنطولوجي لتصنيف الموجود ‘من حيث هو كائن‘[17] إن مجموع هذا التعامل هو *العالم*. ويمكن أن نلحق هذه الأفكار بمعناها الواسع بالبراجماتية الفلسفية. الا أن أصل البراجماتية الفلسفية كان أمريكياً، وكانت المدرسة التي تمثل البراجماتية بمعناها الضيق غير معروفة على الاطلاق لهايدجر. الجدير بالملاحظة هنا هو أن هايدجر بدأ هو أيضا يبحث في ميتافيزيقا المعرفة الخاصة بالذات والموضوع، والتي كانت قضية إشكالية بالنسبة لبنيامين.

بالطبع سوف يتخذ بنيامين طريقا آخر. لن يكون السياق الذي سيلتقي فيه البشر والأشياء هو الواقع العملي كما هو عند هايدجر، ولكنه سيكون القدر. "بواسطة القدر" سوف يستطيع الكائن الحي "الزواج سواء بواسطة حركة الكواكب أو كروت الحظ، والمرأة الحكيمة هي التي سوف تستعين بالتقنيات البسيطة وتستخدم الأشياء المتوقعة، ثم الأشياء المتيقن منها (الأشياء المحملة باليقين الواضح) من أجل أن تدفع بهذا الكائن الى سياق الإحساس بالمسئولية. ومن خلال بعض الإشارات سوف تستطيع أن تخمن بعض الأشياء عن شكل الحياة الطبيعية

[14] Martin Heidegger: Sein und Zeit. Tübingen 2006, S. 68.
[15] المرجع السابق. ص.84.
[16] المرجع السابق. ص. 69.
[17] المرجع السابق. ص. 71.

التي سوف تحياها مع هذا الإنسان الذي تحاول أن تضعه على رأس العائلة، وفي المقابل فإن هذا الإنسان الساعي إليها سوف يقبل التنازل من أجل هذه الحياة المكبلة بالمسئوليات."[18]

[18] Benjamin: Gesammelte Schriften II, S. 175.